معارج حياة

بقلم: د. محمود توفيق محمد سعيد*

على شاطئ البحر الهادر بموجه المتلاحق، نبتت نبعة امتدت أصولها الأولى إلى ذلك الوطن السليب، أرض الفتوح: الأندلس الخصيب، وأصولها الأخرى إلى تونس الخضراء، فاستقرت تلك الأصول على شاطئ الإسكندرية.

ذلك السفر البعيد الذي منيت به تلك الأصول الأولى، وذلك الاستقرار الخالد على شاطئ البحر الهادر، قد التقيا في تلك النبعة التي ظهرت في مفتتح آخر العقد الثالث من القرن العشرين، في العاشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام ثلاثين وتسع مئة وألف من ميلاد المسيح عليه السلام.

في ذلك المناخ الماطر شآبيبَ الرحمة، على ذلك الشاطئ كان الميلاد الجامع في ذلك القادم عطاء أندلس الشعر وتونس العلم[1].

ألقت خبرة هدَّارة (الوالد) التجارية في قلبه حين قدم الوليد ((محمد)) أنّ هذا أثمن صفقة يعقدها، وأخلد تجارة يزاولها، يتاجر بها مع ربّه -عزّ وجلّ- ليربح ذكراً ماجداً، يتردد بوليده (محمد) على كل لسان، بل على أطهر الألسنة وأكرمها عطاء: ألسنة أهل العلم وطلابه، فألقى بفِلذة كبدة (محمد) في محراب العلم.

---

* كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة.

(١) مجلة الهلال: عدد أغسطس (آب) ١٩٩٤، ص١٧٤.

أيقن هدارة (الأب) أن تجارة أبيه قد اجتاحتها عوادي الحرب العالمية الأولى، فلم تبق لهم إلاّ اضطراره التخلي عن مواصلة الأسفار في بحار العلم للأسفار في عالم التجارة، فكان حسن الاعتبار هادياً أن يتاجر بوليده (محمد) في أسواق الذكر الخالد، فأقامه على طريق العلم يغدو فيه ويروح، فكان مفتتح أبواب هذا الطريق ترتيل الوليد (محمد) الذكر الحكيم، فحفظ منه قدراً كبيراً، فكان لمحمد منه نصيب موفور، منحه من طلاقة اللسان والقلم وجرأة القلب وعزيمته، ونافذ العقل، وهيأه لأن يكون على النحو الذي جعله صاحب قصب السبق ما عاش في الناس.

تدرج عالمنا (هدارة) في مدارج العلم، متصاعداً في مدارس التعليم، وشاء الله عزّ وجلّ أن يعاصر (هدارة) الوالد الحرب العالمية الثانية، وهو يتاجر بولده (محمد) في عالم العلم، مثلما عاصر هدّارة الجد الحرب العالمية الأولى وهو يتاجر بدرهمه وديناره.

ويا بُعد ما بين عقبى التجارتين!!!

وكان لزاماً أن يصون الوالد فِلذة كبده وكنز تجارته: ولده محمداً من عاديات الحرب العالمية الثانية، من بعد ما أغار الألمان على الإسكندرية، وكأنّ فطرة الأب قد هدته أن يكون المستقر في هجرته من الإسكندرية على مقربة من معقل من معاقل العلم، ومدار من مدارات التجارة: مدينة ((طنطا))، الزاخرة بالحركة العلمية في المسجد الأحمدي ومدارسها وبالحركة التجارية في أسواقها، ليتحقق لمحمد وإخوته غذاء الأرواح والأشباح معاً، فكان قرار الأسرة في ((طنطا)).

وبقى (محمد) يغدو ويروح فيها متعلماً، حتى وضعت الحرب العالمية أوزارها، فحنت الأسرة إلى معدنها الرحيب الحبيب على شاطئ البحرِ الهادرِ موجُه، الكريمِ عطاؤه، العليلِ نسيمُه، ومحمد ما يزال طالباً في المرحلة الثانوية، فكان له أن يحوز شهادتي الثانوية والتوجيهية من موطنه الحبيب: ((الإسكندرية))[1].

وبرغم من أنَّ عشق العربية والعلوم الإنسانية أخذ بنفس عالمنا (هدَّارة) وهو في تلك الحقبة، إلا أنَّه يختار في الشهادة التوجيهية (شهادة إتمام الدراسة الثانوية) شعبة العلوم لا شعبة الآداب ليتخصص بها، وهو الذي كان محدداً هدفه في الدرس الجامعي، ومقيماً له في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب.

كأنّي بفطرةِ عالمنا (هدَّارة) قد هديت إلى أنه القديرُ الجديرُ بأن يجمع الحُسْنَيين من المنهج العلمي في الدرس بالتحاقه بشعبة العلوم في الشهادة التوجيهية، فيكتسب سمة الموضوعية في التفكير، ونفاذ التحليل، وسبر الأغوار، والرغبة عن السطحية، بالتحاقه بشعبة اللغة وآدابها في كلية الآداب، فيكتسب سمة الإنسانية ورهافة الحسّ، فالتقى فيه رافدان: موضوعية التفكير العلمي، وذاتية الحسِّ الإنساني، وذلك ما كان الغالب على عالمنا (هدَّارة) في حياته العلمية والشخصية، فكان الأصيل المعاصر.

وفي كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، كان مضمار التسابق العلمي، وكان عالمنا (هدَّارة) صاحب قصب السبق، مما حدا به أن يصطفي نظام ((الامتياز)) في تعلمه فيها، القاضي بأن يتخذ الطالب التفوق سَنَناً يعدو على لاحبه، فكان له

(١) المصدر السابق ص١٧٦.

القدح المعلى، وجاز درجة ((الليسانس)) عام (١٩٥٢م) بتقدير ((ممتاز))، وكان المأمول تعيينه ((معيداً)) في قسم اللغة العربية، غير أنَّ ذلك الجواد الرابح في مضمار التسابق العلمي، لم يك يحسن التنافس في الانضواء تحت سلطان أحد، فلم يملك ما يكون له وسيطاً لينال حقّه الذي اكتسبه بجهده وتميزه، فكان قانون القرب من ذي السلطان غالباً، فلم يعين ((معيداً))، و لم تشأ أصوله ومنهاج تربيته أن تبيح له انتزاع حقه بسفح ماء عزّتهِ وكرامته[1].

وكان تعيينه معلماً في مدرسة إعدادية بالإسكندرية، فرضي بذلك عملاً ممزوجاً بعزّة نفسه وكرامته، ولكن لم يكن ذلك حاجزاً له عن الالتحاق بالدراسات العليا، فسجَّل بحثه لنيل درجة الماجستير في الأدب العربيّ ونقده، مباشرة دون درس تمهيديّ من أنه من طلاّب ((الليسانس)) الممتازة القاضية بدخول الحائز بها مضمار البحث مباشرة، وكان اختياره (تحقيق ديوان أبي نواس) مجال عمله. ومضى الفتى يُعَلِّم في مدرسته أبناء مدينته، يقوِّمُ ألسنتهم وعقولهم، ويحقق ديوان أبي نواس.

ومضى وفي عقله ما مُنِي به من ظلامة، ولكنّ عَدْلَ ربّه -عزَّ وعلا- لم يتركه فريسة ظلم أعراف عصره، فقدَّر له أن تمتد رحلته العلمية خارج أسوار جامعة الإسكندرية قليلاً، فتعلن جامعة إبراهيم باشا (عين شمس) بالقاهرة عن وظيفة ((معيد)) وتقدم الفتى وتسابق مع أقرانه، فكان الحائز على الصدارة التي لم يرتض بها بديلاً في أيِّ مضمارٍ، وعيّن معيداً بكلية الآداب في جامعة عين شمس.

---

(١) المصدر السابق ص١٧٧.

وتأتي الهجرة الثانية من حبه المكين: الإسكندرية إلى القاهرة حيث الحياة الصاخبة، والغربة والاغتراب عن الأهل والأحباب.

والتقى الفتى (محمد) مع أقرانٍ في ((جامعة عين شمس)) تحت سلطان رئيس قسم اللغة العربية ((مهدي علام)) وهو ما يزال يعمل في بحثه الذي سجله في كليته بجامعة الإسكندرية (تحقيق ديوان أبي نواس) ولكن ((مهدي علاّم)) لم يرتض أن يعمل الفتى ((محمد)) في جامعة، ويتعلم في أخرى، فقضى أن يترك ((محمد)) بحثه المسجل في جامعة الإسكندرية، وأن يعمد إلى العمل تحت إشرافه هو في جامعة ((عين شمس))، ونحا به نحواً آخر أقامه في دائرة البحث اللغوي، وصارفاً له عن عالم ((النقد الأدبي))، وفرض عليه العمل في بحث موضوعه: ((حروف الجرّ في القرآن الكريم))[1].

وكأنَّ بين اختيار موضوع ((حروف الجر)) وبين موقف الفتى ((محمد هدَّارة)) وموقف أستاذه ((مهدي علام)) منه مشاكلة لطيفة: فحروف الجر معانيها قائمة بغيرها لا بذاتها، والفتى ((محمد)) يأبى أن يكون وجوده قائماً بغيره.

ولم يكن بُدّ من أن يخضع الفتى ((محمد هدارة)) -في أول الأمر- لمراد رئيسه، ولكنه لم يخضع لمنهاجه في التعامل مع الآخرين، لتنافره مع ما طُبع عليه من اعتزاز بالنفس في غير ما استكبار، ومن تواضع في غير ما استصغار، وأدرك رئيسه ((مهدي علاّم)) استعصاء الفتى ((محمد هدّارة)) على أن يسير على دربه، فنبتت شجرة الخلاف بينهما، فعنى بعض الأقران بسقيها بالنميمة والفتنة، فتأجج صدر الرئيس بالضيق من تلميذه ((محمد هدَّارة))، وما أن اعتلى كرسيّ عمادة

(١) المصدر السابق ص١٧٧-١٧٨.

كلية الآداب في جامعة ((عين شمس)) حتى عمل على فصل الفتى ((محمد)) من وظيفته، وكاد الفتى يهوي، فقيض الله -عزَّ وعلا- له الأستاذ ((محمد سعيد العريان)) فأوصله إلى وزير التعليم، فقص عليه ما كان، فجعل الوزير قرار الفصل قرار نقل، وأذن له في أن يسعى إلى كلية ينقل إليها، فلم يقدر له ذلك، فنقل إلى ديوان وزارة التعليم بالقاهرة، ولكنه رغب عن أن يكون موظفاً مكتبياً، فعين مدرساً في مدرسة ((الخديوي إسماعيل)) الثانوية بالقاهرة، ثم نقل إلى مدرسة ((الرمل)) الثانوية بالإسكندرية، وعاد إلى الإسكندرية مخلفاً من ورائه في القاهرة بحث ((حروف الجر في القرآن الكريم)) ولكنه لم يجد في نفسه شوقاً إلى بحثه الأول ((تحقيق ديوان أبي نواس)) فانصرف عنهما معاً.

وكأنَّ فطرته هُديت إلى موضوع يشاكل حاله مع الحياة، فاصطفى موضوع ((مشكلة السرقات في النقد العربي)). وكأنَّ فيه إيحاء من طرف خفي إلى مشكلة سرقة حقه، ومحاولة اغتصاب عزته، وإبائه في الحياة الجامعية، ومضى يسبر غور بحثه، غير ناسٍ أنَّه المسروق حقه في جامعة الإسكندرية، وجامعة عين شمس، فكان له ما أراد فحصل على درجة الماجستير سنة (١٩٥٧) بتقدير ((ممتاز))، وكان له أيضاً من بعد هذا إتمام بحثه للدكتوراه ((اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري)) عام (١٩٦٠م) حائزاً به درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى.

وكان في حقبة غوصه على هاتين الدرتين قد ترك العمل في وزارة التعليم بالمرحلة الثانوية، ليعمل مستشاراً ثقافياً في جامعة الدول العربية، طوّف خلالها في بلدان عربية وغيرها كثيراً، والتقى بكثير من أعلام الثقافة العرب وعلمائهم.

ولما كان مبرزاً ببحثيه للماجستير والدكتوراه استحثه العارفون قدره في جامعة الإسكندرية، أن يلتحق بالعمل عضو هيئة التدريس بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، فعاد إليها من بعد هجرة، حمل عليها حملاً، لولا أنَّ قومها أخرجوه منها ما خرج.

خرج منها صغيراً ينشد العلم، وعاد إليها معلماً طلابها العلم القائم على أصول راسخة في فكرنا العربي الإسلامي، والسابق إلى آفاق المعاصرة المتسامية على التخلف والتطفل.

ومضى عالمنا هدّارة يُعلم وينقب، باحثاً عن المعرفة، ويترقى في مدارج الترقي العلمي، فيرتقي درجة أستاذ مساعد عام (١٩٦٧م) ثم يتسلم ذروة شرف السلم أستاذاً عام (١٩٧٢م).

كذلك أضحى ناقدنا (هدَّارة) علماً يقتعد ذروة طبقات النقاد في جامعته، و لم يك هذا مغرياً له أن تستعذب لذة الإخلاد إلى ما بلغه، بل أغراه ذلك بأن يبحث عن الحقيقة في كل مجال عاش فيه، و لم يرتض لنفسه أن يكون حبيس جامعة الإسكندرية، وكأنه تعلم من موج البحر الذي نبت وأزهر وأثمر على شاطئه حب السفر بالخير إلى بلدان كثيرة، فشارك وهو مدرس بكلية الآداب عام (١٩٦٦) في تأسيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة ((أم درمان الإسلامية)) يقول: ((وقد أفدت من إقامتي بالسودان، فعكفت على دراسة أدبها وأخرجت كتابي (تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان) كما أعددت دراسة كاملة عن تطور القصة السودانية لم أنشرها إلى الآن، وكانت لي مقالة نقدية

أسبوعية في جريدة (الصحافة) كانت تثير مناقشات واسعة لما تتسم به من صراحة وبعد عن المجاملة والسلبية))[١].

وكأنه بذلك كان يقضي بعض حق الأخوة الوثقى لأشقائنا في السودان، ولم يكفه هذا، بل أقام في ((الرياض)) أستاذاً في جامعتها، يقول:

((وطلبتني جامعة ((الرياض)) مع الزميل العزيز الأثير إلى نفسي: الدكتور ((شكري عياد)) في عام (١٩٧٢)، وأمضينا في التدريس بها خمس سنوات متصلة، ووضعنا مناهج الدراسات العليا بقسم اللغة العربية، وبدأنا التدريس لأول دفعة من طلاب وطالبات الدراسات العليا، واشتركنا معاً ضمن زملاء آخرين في تأليف كتب طلاب المرحلة الثانوية في فروع اللغة العربية وآدابها، وكانت لي مناوشات نقدية في صحيفة (الرياض) على وجه الخصوص، وفي مجلات وصحف مختلفة))[٢].

ويعود ناقدنا من الرياض إلى جامعة الإسكندرية ليحمل مسؤولية قيادته في كليته، فيعين وكيلاً لكلية الآداب لشؤون الدراسات العليا والبحوث، من بعد أن خاض منافسة قيادية ليتولى عمادة الكلية، ولكنه لم يكن له -لأول مرة- قصب السبق، فلم يكن يملك ما يقتنص به العدد الأعلى في انتخابات العمادة. فإنّ الفوز في مثل تلك المنافسة لا يعتمد على المكانة العلمية والإدارية، بقدر ما يعتمد على مقومات أخرى هي أبعد ما تكون عما طبع عليه عالمنا (هدَّارة)، ولعل صرامته العلمية، وصراحته في الجهر بآرائه، كانت الحاجز المنيع بينه وبين فوزه في مثل تلك المنافسات الإدارية.

---

(١) المصدر السابق ص١٨٣.

(٢) المصدر السابق ص١٨٣.

وإذا لم يكن عميداً لكلية الآداب بالإسكندرية التي نبت فيها، فإنه قد حُمِل على أن يتولى عمادة آداب جامعة ((طنطا)) انتداباً، فلم ينكص، وكأنه يقضي بهذا بعض حق لطنطا عليه، فقد غدا وراح إلى مدارسها حين هاجر به أبوه إليها في أثناء الحرب العالمية الثانية، يقول: ((وأعتقد -برغم قصر المدة- أنني تركت في الكلية آثاراً لا يزال يذكرها أعضاء هيئة التدريس والعاملون بالكلية))[1].

ويطوف عالمنا بلداناً عديدة عربية وغير عربية، فعمل أستاذاً زائراً في السعودية، والسودان، والأردن، والكويت، ولبنان مرات عديدة، وزار جميع البلاد العربية الأخرى زيارات علمية، وعمل أستاذاً زائراً بمعهد اللغات الأجنبية بشنغهاي في الصين، فطوف في أنحائها مدة ثلاثة أشهر، فاتصل بمسلمي الصين، وزار ((اليابان)) فاطلع على مراكز الدراسات العربية في جامعاتها، وزار الولايات المتحدة الأمريكية، وكثيراً من بلدان أوروبا، فاتصل بكثير من أساتذتها ومستشرقيها من أمثال ((ستيفان فيلد)) و((إيفالد فاجنر)) و((فؤاد سزكين)).

وألقى عديداً من المحاضرات والبحوث في جامعات ومنتديات عديدة مختلفة.

وحاز كثيراً من الجوائز منذ كان طالباً في المرحلة الثانوية، فقد حصل على جائزة التفوق الأدبي في اللغة العربية عام (١٩٤٨) وهو في الثامنة عشرة من عمره، غير أنه كما يقول عن نفسه: (لا بُدَّ أن أعترف بأنني لست من القادرين على حصد الجوائز التي تتدخل في منحها عوامل مختلفة، إذا نحيّ المعيار العلمي الأكاديمي البحت، أو الأساس الموضوعي أياً كان، فشخصيتي غير المهادنة أو المدجنة، التي تصادم في الحق وفي شجاعة رأي لا يتمتع بها كثيرون، ربما أبعدتني

(١) المصدر السابق ص١٨٣.

عن بعض الجوائز، أو بعض المناصب، التي يُحْسِن تصيدها ذوو الملق والمداهنة، والذين يفرضون أسماءَهم على وسائل الإعلام، فيما يشبه أن يكون تحالفاً سرياً خفياً)[1].

لا يتأتى لنا رصد كل أسفاره العلمية ومشاركاته الثقافية وما كرّم به، فذلك أمر مديد مجيد.

ويبقى لنا منه الكثير والكثير، وأثمن ما يبقى بعد منهجه في تربية وإعداد طلاب العلم في رحاب الجامعة، ما أودعه خزائن قلوبنا وعقولنا من البحوث والمؤلفات والمقالات العلمية والثقافية، ومن ينظر في مؤلفاته العلمية التي تجاوزت ثلاثة عشر مؤلفاً، يلحظ أن نصفها تتجلى فيه الأصالة العلمية التراثية في متجهاته التأليفية.

فله من بعد رسالتيه للماجستير والدكتوراة كتاب في الشعر العربي في العصر الجاهلي، وآخر في القرن الأول الهجري، وكتاب عن الخليفة المأمون، وكأنه وجد فيه صورة من نهجه الجامع بين أصالة العلم ومعاصرة الثقافة. فقد كان المأمون راغباً في أن يجمع إلى قومه أصالة العلوم الإسلامية، ومعاصرة الثقافة الأعجمية، فكانت حركة الترجمة على يديه، وهذا، ما جعل عالمنا هدّارة يعنى منذ كان طالباً في المرحلة الثانوية بالترجمة، فترجم رواية (إيفانهو) التي كانت مقررة عليه، وقدّم لنا من بعد عدة كتب ترجمها منها: (قاهر القطب الجنوبي) لرتشارد بيرد، و(ملفل الملاح الصغير) سيرة حياة الروائي الأمريكي ((هرمن ملفن)) التي كتبتها ((جين جولد)) و((الإسلام)) لألفريد جيوم.

---

(١) المصدر السابق ١٨٥.

وإذا ما كانت نصف مؤلفاته في مجال الموضوعات التراثية، فإن نصفها الآخر كانت موضوعات معاصرة متعددة الاتجاهات، في النثر والشعر في مصر وغيرها، من نحو كتابه (تيارات الشعر المعاصر في السودان) و(الشعر العربي المعاصر إلى أين).

وكذلك كانت له عناية بتحقيق التراث، ولعل رغبته التي ظهرت في اختياره أول موضوع لينال به الماجستير (تحقيق ديوان أبي نواس) دون أن يتمه تكشف عن عنايته بهذا العمل، وإذا كان بعض المشتغلين بتحقيق التراث الآن لا يعدو أحدهم أن يكون ناسخاً أو وراقاً، ولا يعرف من أصول التحقيق وآدابه أدناها، بل إن بعض دور النشر التجارية لتسند مثل هذه الأعمال الجليلة إلى صغار طلاب الجامعة، ثم تعلن أن الكتاب حققته لجنة من العلماء، إذا كان هذا، فإن عالمنا ((هدّارة)) ليعرف للتحقيق قدره، فقدم لنا تحقيق كتاب (سرقات أبي نواس) لمهلهل بن يموت، وكتاب (ضرائر الشعر) للقزاز القيرواني، وكتاب (نهاية الإيجاز) للرازي.

أما بحوثه المنشورة فهي جدّ كثيرة تتجاوز الخمسة والعشرين بحثاً، يغلب عليها المعاصرة، فشأن المؤتمرات والندوات أن تكون موضوعات بحوثها كذلك.

وقد كان للأدب الإسلامي نصيب موفور من بحوثه منها:

- معالم الأدب الإسلامي.
- الأدب الإسلامي بين جمال الفن وحدود الالتزام.
- موقف الأدب الإسلامي من المذاهب الأدبية المعاصرة.
- الالتزام في الأدب الإسلامي.

وهذا يكشف شيئاً من منهج عالمنا (هدّارة) في الجمع بين أصالة العلم، ومعاصرة الثقافة الإنسانية.

وكذلك كانت حاله في البحوث العلمية التي أشرف عليها في مرحلتي الدكتوراه والماجستير بالدراسات العليا.

وقد كان للموضوعات التراثية النصيب الأوفر، ولا سيما ما يتعلق بأدب ونقد القرن الثاني الهجري، والأدب الجاهلي كذلك.

وقد كانت موضوعات هذه البحوث من التنوع ما يدل دلالة باهرة على عظيم اتساع آفاق المعرفة والخبرة العلمية في إعداد البحوث والإشراف عليها. وقد غدا كثير من الباحثين الذين أشرف على دراساتهم أساتذة في الجامعات العربية، يربون أجيالاً أخرى على مثل ما رباهم عليه عالمنا (هدّارة).

obeikandl.com